مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:07 العدد 01 جانفي (2023) ص 651 - 666

نقد الخطاب النثري العربي القديم (المسار والمؤلفات النقدية)

Criticism of The Ancient Arabic Prose Discourse

(Track and Critical Literature Reviews)

باية بن مساهل *

جامعة محمد بوضياف المسيلة

Baya.benmessahel@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/05/20
تاريخ القبول:
2022/12/27

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الخطاب النثري القديم
- ✓ النقد المروي، المكتوب
- ✓ المؤلفات النقدية
- ✓ عصر التأليف
- ✓ ما قبل عصر التأليف

الملخص:

لقد أدرك بعض النقاد القدامى بأنّ نقد الخطاب النثري عند العرب في حاجة إلى استئناف في النظر والتقييم، وأيقنوا ضآلة حظ الخطاب النثري في تراثنا النقدي، وأحسوا بأن النثر العربي القديم لم يحظ بالاهتمام نفسه نقديا مقارنة بحظ الخطاب الشعري، لذا حاولوا استدراك ذلك الإغفال والنقص بتخصيص مؤلفات مستقلة لدراسة النثر ونقده والتنظير له، ولعل أبرز هؤلاء النقاد الذين مثلوا المرحلة الكتابية لنقد النثر : ابن قتيبة الدينوري، ابن المدبر، ابن عبد الغفور الكلاعي وغيرهم من النقاد، الذين كانوا موضوع هذا البحث، مع الوقوف فيه على مرحلة النقد المروي التي سبقتهم.

Article info

Received

Abstract :

* المؤلف المرسل

Some of the old reviewers have realized that the criticism of prose discourse among the Arabs needs to be resumed in consideration and assessment. They have recognized the ill luck of prose discourse in our critical heritage ,for that they felt that the ancient Arabic prose has lacked attention and focus compared to the fortune of poetic discourse, so they tried to redress this omission and deficiency by allocating Independent literatures for the study of criticism, and theorizing of prose, and perhaps the most prominent of those critics who represented the written stage of prose criticism are : Ibn Qutaybah al-Dinuri, Ibn al-Modabar, Ibn Abd al-Ghafoor al-Kalayi and others, who were the subject of this research, while identifying stage of narrative criticism that preceded them.

20/05/2022
Accepted
27/12/2022

Keywords:
- *The ancient prose discourse*
- *Narrative criticism*
- *Critical Literature*
- *Authorship Era -Before Authorship Era.*

. مقدمة:

الخطاب النثري مصطلح متداول في النقد العربي القديم بمعنى النثر ، ويستعمل هذا المصطلح كقسيم للخطاب الشعري [1] ، والاثنان يجمع بينهما الخطاب الأدبي ، وهذا ما يؤكده مسكويه بوضوح في قوله :" إن النظم والشعر نوعان قسيمان تحت الكلام ، والكلام جنس لهما ."[2] فالخطاب لفظ عام ليس خاصا بالنثر والشعر فحسب ، بل يطلق على مجالات أخرى كالدين، والسياسة ،والفلسفة وما إلى ذلك. ولكن بؤرة اهتمامنا هي الخطاب النثري = النثر*.

و ضآلة حظ الخطاب النثري من الاهتمام في تراثنا النقدي القديم مقارنة بحظ الخطاب الشعري، الذي مثلّ- وبجدارة – ديوان العرب الأول، والثقافة السائدة آنذاك، دفعت كثيرًا من النقاد والدارسين [3] إلى التنبيه بأنّ النقد العربي القديم ينصب على الخطاب الشعري دون النثري، وهو زعم لا يثبت أمام الحقيقة ،سواءً في مستواها التاريخي ، أمْ العقلي والمنطقي.

فالواقع التاريخي يفند هذا الزعم، ويقطع الشك باليقين، فقد كان للعرب آراء في نقد الخطاب النثري بدأت أوّلية ارتجالية [4] منذ العصر الجاهلي ثم تطوّر هذا النقد، وتبلور إلى مؤلفات نقدية في عصر التدوين .

كما أن العقل يرفض، ويأبى انفصال العمل النقدي عن العمل الإبداعي، فحيثما كانت حياة أدبية وفكرية تنمُو، ولو بصورة جنينية في رحم الكيان الإنساني، كانت هناك جهود نقدية حثيثة تسير في ظلّه، وترصد خُطاه واتجاهاته من أجل تنمية هذه الحياة الأدبية وتطويرها إذ لا يمكن أنْ نقف على عمل فنّي راقٍ، ما لم يكن وراءهُ رجلان: الأديب (أو الشاعر) والناقد.

فللنقد إسهام وافر في نمو الخطاب النثري، ودفعه نحو استكمال خصائصه الفنيّة، وإنْ كان غائبًا كما قال كثير من الدارسين المحدّثين- عن هذا الدور الفعّال، فكيف بلغ النثر الفني هذه الدرجة الرفيعة من التطور خاصة في العصر العباسي؟،وكيف اكتسب القلم الدلالة الجديدة، وزاحم الشعر في مكانته؟

إذن فاهتمام النقاد العرب القدامى بالخطاب النثري كان أقلّ من اهتمامهم بالخطاب الشعري الذي استحوذ على جلّ جهودهم[5]،ولكن هذا لا يمكن أنْ يكون سببًا لإنكار هذا الاهتمام أو تجاهله ومن الطبيعي أن يمرّ نقد الخطاب النثري بالمراحل نفسها التي مرّ بها الخطاب النثري في تطوره من الشفاهية إلى الكتابية- كما سبق أنْ رأينا – كنتيجة للتلازم بين الأدب ونقده، لذلك لا عجب أن يبدأ هذا النقد شفهيا ارتجاليا، بإبداء ملاحظات نقدية وأحكام عامة يطلقها السامعون نتيجة لتأثرهم بما يسمعون من خطب أو غيرها ،ثم يرقى ذلك في عصر التدوين إلى تأليف المؤلفات النقدية في الخطاب النثري.

انطلاقا من هذا سعت هذه الورقة إلى رصد وتتبع هذه المراحل النقدية التي مر بها الخطاب النثري، والتي وضعت أسسه النقدية شيئا فشيئا على أيدي الخطباء، والكتّاب بمختلف مشاريعهم الفكرية، وانتماءاتهم السياسية، ومعتقداتهم الدينية، ابتداءً من المرحلة الشفهية الممتدة من العصر الجاهلي حتى أواخر القرن الثاني، والتي تعتبر اللبنة والمرحلة التأسيسية لمرحلة النقد المكتوب وصولاً إلى عصر التأليف، حين تبلورت إلى مؤلفات في نقد النثر، يمكن أن نطلق على هذه المرحلة الكتابية في نقد الخطاب النثري بالمرحلة التأصيلية لنقد الخطاب النثري، فما مدى حضور النقد المروي في الخطاب النثري؟، وماذا احتفظت المصادر النقدية والبلاغية من أخبار عن فترة ما قبل عصر التأليف؟، وما هي أهم المؤلفات النقدية المختصة بنقد النثر فقط في عصر التأليف؟.

حيث تهدف هذه الدراسة إلى نفض بعض الغبار عن التراث النقدي العربي الخاص بالخطاب النثري على وجه الخصوص، والذي لم يحظ بالاهتمام نفسه نقديا مقارنة بحظ الخطاب الشعري، مع أن النثر بلغ درجة كبيرة من التطور في العصر العباسي، واكتسب الكاتب المكانة المتميزة حتى أنه زاحم الشعر في مكانته اتي تربع عليها طول العصور السابقة، وعليه جاء موضوع الدراسة بعنوان: " **نقد الخطاب النثري العربي القديم(المسار والمؤلفات النقدية)"**، **وارتأيت أن** أسلط الضوء **من خلالها على مرحلتين أساسيتين** في نقد الخطاب النثري :

- **المرحلة الشفهية** :(نقد النثر قبل عصر التأليف).⇦ النقد المرويّ .
- **المرحلة الكتابية** :(نقد النثر في عصر التأليف) ⇦ النقد المكتوب .

1 - المرحلة الشفهية (قبل عصر التأليف):

تعتبر هذه المرحلة أقلّ المراحل وضوحًا، وأكثرها استعصاءً على الضبط الدقيق، لأنها تمثل طور نشأة نقد الخطاب النثري، وبداية التعرض لمسائله المختلفة وهذه الصعوبة ليس خاصة بنقد النثر فقط، بل بنشأة أي علمٍ أو فنٍ، وكذلك "لأنّ نقد الأعمال المنثورة بالنظر إلى صعوبة حفظها يتطلب أن تكون مكتوبة وهو ما لم يكن متيسرًا في بيئة تغلب عليها الأميّة وتعتمد اعتماداً كبيرًا في شؤونها على المشافهة، وبناءًا على هذه الحقيقة فإن النقد عند الجاهليين كان أكثر ملازمه للشعر".[6]

وبغضّ النظر عن هذه الآراء التي تبقي مجرد افتراضات خصوصًا أن الشك واقع لا محالة في كل ما جاء قبل عصر التدوين ، نرجح البدايات الأولى لنقد الخطاب النثري إلى العصر الجاهلي إذ " أنّ العرب من نهاية العصر الجاهلي أخذوا يُخضعون الكلام لنقد أوّلي، ولكنه في أغلب الأحوال سديد، لأنهم كانوا يعوّلون فيه على سلامة الذوق. ولقد بلغ بهم الأمر أنْ استكشفوا عيوبًا فنية في النظم،ووضعوا من النصح ،والإرشاد ما قد يُفيد كلاً من الخطيب والشاعر في صناعته "[7].

وقد احتفظت المصادر بجملة من الأخبار عن هذه الفترة، التي تتضمن ملاحظات تمثل رغم تواضعها اللبنة الأولى في العمل النقدي والبلاغي الخاص بالخطاب النثري، ففيما يتعلق بالخطابة ما عُرف عن أكثم بن صيفي يوم أنْ قام فقال :"إن

أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال مُلوكها ، وأفضل الملوك أعمّها نفعًا،وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها،الصدق منجاة، والكذب مهواة.....الصمت حكمٌ والقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز، من شدّد نفرَ، ومن تراخى تألّف."[8]وتستكمل الرواية بما كان من تعجب كسرى حتى قال:"ويحك يا أكثم ، ما أحكمك ،وأوثق كلامك ! لولا وضعك كلامك في غير موضعه " .

كما أثر عن أكثم بن صيفي أنه كان إذا كاتبَ ملوك الجاهلية يقول لكتّابه: "افصلوا بين كل منقضى معنى، وصِلُوا إذا كان الكلام معجونًا بعضه ببعضٍ"[9] .

وفي هذين الشاهدين دليل على المعرفة المبكرة لعرب ما قبل الإسلام بأحكام صناعة الكلام؛ إذْ يبيّن أكثم بن صيفي مجموعة من الأمور :

أولها: مسألة الصدق والكذب: والتي أصبحت فيما بعد كمبدأ للتفريق بين الخطابة والشعر عند الفارابي، إذْ يشير في كلامه أن الشعر يقوم على التخييل(=الكذب)، بينما الخطابة تقوم على الصدق والإقناع[10].كما ألمح ابن وهب إلى هذه القضية، ونسبها إلى أصلها الأرسطو طاليسي .[11]

وثانيها : أن الصمت من البلاغة: وهو ما نجده فيما بعد في جواب ابن المقفع عندما سئل ما البلاغة قال: "اسم لمعانٍ تجرى في وجود كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون...." [12]، وهو ما حثَّ عليه الجاحظ أيضا .[13]

ثالثها: البلاغة الإيجاز :فالبلاغة مرادفة للإيجاز في نظره- أكثم بن صيفي- والإيجاز اقتصاد في اللغة وتكثيف في الخطاب الأدبي، وهو يتناسب وطبيعة المرحلة الشفهية آنذاك .

ورابعها:ما نستشفه من نقد كسرى للأكثم، وهو "مراعاة المقام" أو"مطابقة الكلام لمقتضى الحال."[14] وهو ما أصبح فيما بعد العمود الفقري للبلاغة العربية .

أما خامسها : فهو الإشارة إلى الفصل والوصل في الكلام ، وباب "الفصل والوصل" صار فيما بعد من أهمّ أبواب البلاغة، وهو نفسه ما يشير إليه الحرث بن أبي شمر الغساني إذْ يقول لكاتبه المرقش: "إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه، فافصل بينه وبين تبيعته من ألفاظ فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن يمذق، نفرت القلوب عن وعيّها وملتُه الأسماع ،واستثقلته الرواة."[15] إلا أنه لا يكتفي بأنْ يبيّن متى يكون موصولاً، ومتى يكون مفصولاً، وإنما يبين أثر ذلك على المتلقي، فمتى لم يحسن الكاتب الفصل والوصل، أدى ذلك إلى انقطاع التيار النفسي الذي يصل بينه وبين جمهوره من المتلقين، فتنفر منه القلوب وتملّه الأسماع ،خاصة أن المعوّل هو الرواية الشفهية القائمة على الشفرة المنطوقة، وكأنّ "الفصل والوصل"–إلى جانب غيره من العناصر الصوتية (التنغيم..) ،والحركية ....- يهبّ الحياة للنص الشفاهي آنذاك.

ومن الشواهد النقدية أيضًا، سؤال عامر بن الظربْ العدواني لحُمَمَة بن رافع الدّوْسي بين يدي بعض ملوك حِمْيَر عن أبلغ الناس؟، فقال :"من حَلَّى المعنى المزيزَ (=الأفضل) باللفظ الوجيز ، وطَبَقَ المفْصِل قبل التحزيز "[16]،وفي القول إصابة للمعنى مع حسن الإيجاز.

فالظاهر من الوقائع النقدية التي تحمل بين ثناياها أول صور النقد في العصر الجاهلي "أن هذا النقد الناشئ ينقد أدبًا حديث العهد بالحياة، كان يتجه إلى الصياغة والمعاني، ويعرض لهما من ناحية الصقل والانسجام كما توحي به السليقة."[17]إذن يمكن القول بأن النقاد التفتوا للجانب الفني للخطاب النثري، وأدركوا مواطن الجمال فيه [18] ،وشهادة الجاحظ على تثقيف أدبهم وتنقيحه خير دليل على هذا الإدراك الجمالي، فهو يقول:" لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طِوال القصائد، وفي صنعة طوال الخطب....وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير، ومهمات الأمور ميّثُوه* في صدورهم، وقيّدوهُ على أنفسهم، فإذا قومه الثقاف وأدخل الكير، وقام على الخلاص ،أبرزوهُ محَككًا، منقحًا ،ومُصفى من الأدْناس مهذبًا ". [19]

ومع المنعطف الديني الجديد ،ونزول القرآن الكريم﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [20] وقف العرب مبهورين، ومشدودين أمام هذه المعجزة البيانية الكبرى؛ التي اتخذت من شكلها اللغوي حجة لنبوّة الرسول (ص) في زمن أكثر ما كانت العرب فيه شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغة، وأشدّ ما كانت عدّة- على حدّ قول الجاحظ- فهم أرباب الفصاحة والبلاغة انقطعت آمالهم في محاكاته، أو الإتيان بمثله، بل عجزت لغتهم وألفاظهم حتى عن وصفه، ولم تستطع ردُود الفعل الأولى الرافضة لهذه الرسالة السماوية بكثير من العنف، إلا أن تقرّ بخصائصه الأسلوبية المتميّزة، وتسلم بها، ونستشف ذلك من محاولة الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول- ص - وصفه القرآن الكريم خلال حواره مع قريش حين حاولت أن تلصق بالنبي - ص - تهمة تبعدُ العرب عنه حتى لا يفتتنوا بما ينزل عليه من الوحي، فقد" قالوا: نقول كاهن، قال : لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا فنقول: مجنون، قال:ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناهُ فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته ، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر رجزهُ، وهجزهُ ، وقريضهُ ومقبوضهُ ، ومسوطهُ، فما هو بالشعر ، قالوا: فنقول ساحر قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعهُ لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه.... "[21]وفي رواية أخرى أنه قال: "والله لقد سمعت من محمد آنفا كلامًا ما هو من كلام الإنس والجن، وإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاهُ لمثمر، وإن أسفله لمغدق.*" [22] فملاحظة الوليد صادقة؛ فالقرآن الكريم لا يُماثل كلام الإنس، ولا كلام الجن، ولا هو شعر، ولا سجع كسجع الكهان"فهو يتجاوز الأنواع الأدبيّة، ويخلق نوعًا جديدًا ....إنما هو وليد رؤيا جديدة للعالم. "[23]

وإنْ وَصَفُوهُ في نهاية المطاف بـ "السحر" ،فكلمة السحر هنا تأخذ دلالة جديدة نستشفها من قول الرسول-ص- :"إن من البيان لسحرًا" عندما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر، فأثنى عليه- عمرو بن الأهتم-خيرًا فأقنع، ثم أثنى عليه شرًّا فتفنّن [24].فكأنه سحر السامع فصدقهُ في الأولى ،وازداد تصديقا في الثانية، فما يقصده الرسول- ص - أن للبيان العربي تأثير على القلب ،والعقل يُلامسُ حدود السحر.

ومما أُثر عن صدر الإسلام من ملاحظات في نقد الخطاب النثري ،أنْ تكلم رجل عند النبي- ص- فقال له -ص- :"كم دون لسانك من حجاب ؟،قال: شفتاي وأسناني ، فقال له: "إن الله يكرهُ الإنبعاق* في الكلام ، فنضّر الله وجه رجلٍ أوجز في كلامه، واقتصر حاجته."[25] فالرسول-ص- يدعو إلى الإيجاز و الاقتصاد اللغوي .

كما يروى عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه- من أنه مَرَّ برجلٍ معه ثوب، فسألهُ أبي بكر-رضي الله عنه- قائلاً: أتبيع الثوب؟ فقال : لا عافاك الله، فقال أبو بكر الصديق: "لقد عُلِّمتم لو كنتم تعلمون ، قل: لا، وعافاك الله." [26] فجملة" لا عافاك الله" في قول الرجل دعاءٌ على أبي بكر لا لهُ ، وبعدما صَوَبها أبو بكر صارت دعاء له، وذلك بفصله بين "لا" النافية،

وبين الجملة الدعائية" عافاك الله" بواسطة "الواو"، وقد صار هذا الباب "الفصل والوصل" من أعظم أبواب البلاغة فيما بعد .

ومع اشتداد العصف السياسي في عصر بني أمية، كثرت الملاحظات النقدية الخاصة بالخطاب النثري،وربما يرجع ذلك إلى أمرين: "أولها : ما كان بين الأحزاب السياسية في ذلك العصر من صراع ،تحوّل إلى عقيدة نظرية في الكوفة والبصرة أكبر أمصار العراق في ذلك الزمان،وثانيهما الحركة الفكرية القوية التي ظهرت في ذلك العهد نفسه، فلم تكن مساجد الكوفة والبصرة يومئذٍ مجرد أمكنة يتعبّد فيها المسلمون ، ويفصل أقضيتهم، بل كانت فوق ذلك مدارس يغشاها العلماء لتدريس اللغة ،والنحو ،والحديث، والفقه ، و الأخباريون ليقصُوا على سامعيهم أخبار السيرة والفتوح والفتن، وزعماء الأحزاب السياسية والفرق الدينية للجدل والمناظرة، وكان يجلسُ إلى هؤلاء جميعاً أفناء من الناس من بين مسلم، ويهودي ونصراني ، ومجوسي....،لا شك أن من يتصدى للكلام من هؤلاء ينبغي أن يكون موفور الحظ من وضوح العبارة، وظهور الحجة، وخفة الروح، والقدرة على الإفهام، ثم نشأ بحث دقيق فيما ينبغي أنْ يتحلّى به الخطيب من الصفات،وما ينبغي أنْ يخلو منه من العيوب، سواءً أكان ذلك من حيث الكلام ،أو من حيث الهيئة والإشارة."[27]وكتاب الجاحظ حافل بالملاحظات النقدية حول جنس الخطابة، التي ارتقت ارتقاء بعيدًا-في العصر الأموي-بعد أن اِتُخِذت أداتهم للظفر في آرائهم السياسية، والانتصار في مجادلاتهم المذهبية، وعوّلوا عليها في قصصهم ومواعظهم،ومن جملة هذه الملاحظات"أنْ تكلم عند معاوية الخطباء فأحسنوا فقال: والله لأرميّنهم بالخطيب الأشدق! قُم يا يزيد فتكلم." [28] فقد كانوا يمدحون جهارة الصوت وسعة الأشداق(=الفم)،أما ما يخص الهيئة لا الكلام، ما قيل عن الحسن البصري: "كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وكأنه إذا جلس فكأنه أسيرٌ قد أمر بضرب عنقه، وكان إذ ذكرت النار عندهُ فكأنما لم تُخلق إلا لهُ "[29].وهذا ما قال عنه الجاحظ النصبة؛"وهي الحال الناطقة بغير لفظٍ والمشيرة بِغير اليد." [30]

ومن الملاحظات الأسلوبية الخاصة بالخطاب النثري ،ما قالهُ مالك بن دينار في الحجاج:"ربما سمعت الحجاج يخطب،يذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه، وحُسن تخلصه بالحجج ."[31]فمالك بن دينار يشير إلى قدرة الحجاج على التأثير في المتلقي، وذلك بتصوير الحق في صورة الباطل،وتصوير الباطل في صورة الحق.[32] و" أدبيّة "خطب الحجاج -الخطاب النثري عموما- هي التي ضمنت هذا التأثير في المتلقي، وبالتالي تأدية وظيفة هذا الخطاب المطلوبة.

ونجد معاوية يقول لعمرو بن العاص:"من أبلغ الناس؟قال:من اقتصر الإيجاز، وتنكب الفضُول."[33] ويتعزّز هذا بسؤال معاوية لصحار العبدي: "ما تعدّون البلاغة فيكم قال: الإيجاز."[34] فلكي يكون الخطاب النثري بليغا ينبغي أن يكون موجزًا؛ يجمع معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة دون الإخلال بالمعنى، وهنا تكمن قدرة الأديب وأسلوبه الأدبي الخاص .

وكان استعمال آيات من القرآن الكريم ضربًا من ضروب بلاغة الخطاب النثري التي تظلّ غير تامة من دونه ،فقد روي عن عمران بن حطان انه قال :"إنّ أول خطبة خطبتها عند زياد- أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس، وشهدها عمي وأبي، ثم إني مرّرْت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم:هذا الفتى أخطب العرب، لو كان في خطبته شيء من القرآن."[35] فالقرآن شَهدٌ يضفي على الخطاب النثري حلاوة ورونقا، إلى درجة أن أطلقوا ألقابًا على الخُطب تنويهًا بها ، وإعظاما لها، لأنّ خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان ،مازالوا يسُمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد، ويستفتح

كلامه بالتمجيد: البتراء، ويُسمون التي لم توّشح بالقرآن وتزيّن بالصلاة على النبي-صل الله عليه وسلم-الشوهاء."[36] واستعمال الآيات القرآنية في الخطاب النثري هو ما تكرس فيما بعد عند البلاغيين، وأطلقوا عليه مصطلح الاقتباس.

ولقد اشتدّت عناية العرب بصناعة الكلام مع العصر العباسي، فالمحقق أن المعتزلة والمتكلمين عامة، بعد أن وُجدت مقدماتهم في العصر الأموي، في مساجد البصرة والكوفة....نصل إلى العصر العباسي ، بل إلى أواخر العصر الأموي فنجدهم يقيمون المناظرات، ويجتمع الناس حولهم ليروا من يظفر بخصمه ،ويقطعه عن الكلام قطعًا، فطبيعي أن يدفع ذلك بالمتكلمين- وفي مقدمتهم المعتزلة- ومن حولهم إلى التساؤل عن الأصول التي تقوم عليها براعة القول، وبلاغته، خاصة أن صناعتهم تقوم على إحسان فن القول، وأن ينثر المتكلمون الحاذقون في ذلك ملاحظات عن البيان والبلاغة :

ومن ذلك إجابة العتابي –معتزلي- لسائل سألهُ : ما البلاغة؟ فقال : "كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حُبسة، ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يرُوق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غَمُض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق قال لهُ: قد عرفتُ الإعادة والحُبْسة، فما الاستعانة؟قال: أما تراهُ إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه،ياهَنَاهُ، وياهيَه،واسمع مني، واستمع إلي، وافهم عني، أولست تفْهمُ، أو لست تعقلُ فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد." [37]

فالبلاغة في نص العتابي تكمن في التدفق البياني دون إعادة ،وتكرار، واستعانة على أن يكون إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام العرب الفصحاء،وليس على كلام المولدين الملحون[38]، أما البلاغة الرفيعة و أعلى درجات البيان، فهي تصوير الباطل في صورة الحق وربما تتفق مع كلمة"السحر" في قوله –صل الله عليه وسلم- :"إن من البيان لسحرًا" .

وقد أشار أيضًا إلى مسألة "التكرار"- المذكورة آنفا- المحدّث والواعظ ابن السماك حين كان يومًا يتكلم وجارية له تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: "كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنهُ، لولا أنك تكثر ترْدادهُ. قال:أردده حتى يفهَمَهُ من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمهُ من لا يفهمه قد مَلَّهُ من فهمهُ."[39] وتتعزّز مساهمة بيئة المتكلمين بصحيفة بشر بن المعتمر في البلاغة؛ وهي أروع ما أثر عن المعتزلة في هذا العصر، وهم بصدد تبيان بلاغة القول، ويستهلها بأن الأديب سواءً أكان خطيبًا ،أو كاتبًا ،أو شاعرًا ينبغي أن لا يُقْدم على الكلام إلا إذا كان مستعدًا، نشطًا، فارغ البال قائلاً :"خُذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك ،وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسْماع ، وأحلى في الصدور، وأسْلم من فاحش الخطاء..... "[40]

ولم يكن المتكلمون وحدهم الذي اهتموا بمعرفة أصول البيان، وصناعة الكلام .فقد تضامنت معهم في ذلك جهود الكُتّاب"ففي الوقت عيْنه أخذت تظهر طبقة عمال الديوان وكُتّاب الخلفاء ، وكان معظم هذه الطبقة أعاجم من الفرس، وأهل الجزيرة، والسريان والقبط، وكان أفرادها جميعا قد ثقفوا بلغاتهم الأصلية، ثم حذقوا فوق ذلك العربية مع سوء التلفظ بها أحيانًا، هذه الطبقة كانت تلي للخلفاء ورؤساء الدولة المناصب الإدارية والكتابية وسلكت في الكتابة طرقًا أخذت بها من كان تحت أيديها من العمال، ومن ثم أصبحت الكتابة أمرًا يتنافس فيه، وتدوّن الملحوظات الخاصة به، وتُلقن أصوله للمبتدئين "[41].

وقد أثر عن هؤلاء الكتّاب كثير من الملاحظات النقدية الخاصة بفن الكتابة، والتي تهدف إلى تعليم البيان للناشئة؛ فقد تحوّلوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة؛ إذْ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم صغار الكتّاب ،فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنّم كتابته عن تفنّن في القول، شجعوهُ وربما قدّموه إلى الخليفة. [42] فلقد "رفع الملوك من بني العباس بلغاء

كُتابهم إلى الوزارات، وقلّما رفعوا شاعرًا لشعره."[43] وهذا ما يؤكد سُمو الكُتّاب، ورِفعة مكانة الكتابة ،التي أصبحت على يد هؤلاء "حرفة وصناعة تتعلم، وتسمو على أيديهم وكتبهم، كما أن لها أسسها وقواعدها التي قعدها أساتذة هذا الفن ."[44]

ومن هؤلاء الأساتذة في مطلع هذا العصر العباسي عبد الله بن المقفع (ت 143ه) الذي يُروى أنه سُئل عن البلاغة وتفسيرها، فقال : "اسم جامع لمعانٍ كثيرة تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت،ومنها ما يكون في الاستماع ،ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث ،ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخُطبًا، ومنها ما يكون رسائل فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البيْن، فالإكثار في غير خطل ، والإطالة من غير إملال ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدرهُ عرفت قافيتهُ... فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟. قال: إذا أعطيت كل مقام حقّهُ ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ، فإنه لا يُرضيها شيء، وأمّا الجاهل فلست منه، وليس منك، و رضى جميع الناس لا تنالهُ "[45].

فابن المقفع يذكر في نصه كل فنون الكلام الأدبي ، ونجد ضمنها بعض الأجناس النثرية كالخطابة، والرسائل ، والمناظرة(=الاحتجاج)، ويطلب فيها "الإيجاز"، فالقدرة على تكثيف الفكرة مع الاقتصاد في اللغة هي البلاغة في نظره،ولكنه يستثني خطب المحافل(=السماطين) وخطب الصلح، ويطلب فيها الإطالة من غير خطل ولا إملال،ويضع قاعدة مهمّة يوصي بها الخطيب، بأن يجعل في صدر الخطبة (=المطلع)ما يدّل على موضوعها ، وهو سماهُ البلاغيون فيما بعد ببراعة الاستهلال، وحسن المطلع.

وإنْ كان الجاحظ قد أشار إلى أنه :"لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحدٌ قطّ"[46] ، فإن هذا التفضيل في حقيقة الأمر لا يُخرج ابن المقفع من عصره، حيث يبقى تعريفه للبلاغة ككلّ التعريفات السابقة والمعاصرة له ،يدخل في "مرحلة من عدم استقرار الاصطلاح، وتأرجح استخدامه في أكثر من مدلول ، وذلك قبل أن يستقر استخدامه في دائرة النشاط القولي عامة،ثم ينحصر في دائرة الكلام الفني"[47] بصفة عامة،والخطاب النثري بصفة خاصة .

وهكذا نلاحظ كيف وضعت الأسس النقدية للخطاب النثري شيئا فشيئا على أيدي الخطباء، والكتّاب بمختلف مشاربهم الفكرية، وانتماءاتهم السياسية، ومعتقداتهم الدينية، ابتداءً من المرحلة الشفهية الممتدة من العصر الجاهلي حتى أواخر القرن الثاني، والتي تعتبر اللبنة والمرحلة التأسيسية لمرحلة النقد المكتوب وصولاً إلى عصر التأليف، حين تبلورت إلى مؤلفات في نقد النثر، يمكن أن نطلق على هذه المرحلة الكتابية في نقد الخطاب النثري بالمرحلة التأصيلية لنقد الخطاب النثري.

2 - المرحلة الكتابية (عصر التأليف) :

مع ابتداء النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ،بدأ الاتجاه العلمي والتصنيفي ينحو نحو التأليف، وأصبح لنقد الخطاب النثري كياناً واضحاً؛ يبدأ بالتذوق أي القدرة على التمييز ويَعبُر منها إلى التفسير ،والتعليل ،والتحليل، والتقييم – خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى وهي متدرجة على هذا النسق- ومثل هذا المنهج المنظم لا يمكن أن يتحقق حين يكون أكثر تراث الأمة شفويًا ،إذْ الاتجاه الشفوي لا يُمَّكن من الفحص والتأمل، وإن سمح بقسطٍ من التذوق والتأثر.

فالتدوين (= التأليف) يخلق مجالاً للنقد، ولكنه لا يستطيع أن يخلق وحده نقدًا منظمًا بل لابد من الإحساس بالتغيّر والتطوّر- كعامل مساعد- الذي يلفت الذهن(=ملكة النقد) إلى حدوث "مفارقة"[48] ، وهذا ما حدث بالفعل حين زاحم الخطاب النثري الشعر، وغدا ديوان العرب أيضًا، فقد أحسّ النقاد آنذاك ببعض المفارقة، والتغيّر في طبيعة الفن السائد ، واتجاه الثقافة العربية إلى الاحتفاء بالقلم، وإعطائه مكانًا مرموقًا؛"فظهور النثر الفني غيّر طبيعة الخطاب النقدي القديم من خطاب اقتصر على الشعر(صحيح/منتحل،طبقات الشعراء موازنات...)إلى خطاب نقدي يرى في النثر منافسًا للشعر."[49] لذا أخذ علماء العصر العباسي الأول يهتمون بتدوين الآراء اللغوية والنقدية الخاصة بالخطاب النثري وما يتصل بها من وجوه المسائل الأدبيّة والشعرية، نهجوا فيه منهجًا علميا ،وتاريخيا منظما، وتعتبر مثل هذه الكتب والتصانيف النقدية المبكرة التجربة النقدية المكتوبة الأولى التي خَلَفت عصر النقد المروي (=المرحلة الشفهية)، فهذه المرحلة تمثل صورة عن النقد الأدبي منذ أواخر القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع؛أي من الجاحظ (255ه)المنظّر الأول للخطاب النثري- والخطابة خاصة- إلى ابن الأثير (ت637ه) موضوع الدراسة، ويمكن تصنيف مؤلفات هذه المرحلة في التراث النقدي العربي صنفين:

أولاً : كتب تجمع بين نقد الشعر والنثر :

- البيان والتبيين: للجاحظ (ت255ه)

- البلاغة: للمبرد (ت285).

- الكامل في اللغة والأدب: للمبرد.

- البرهان في وجوه البيان:لابن وهب(ت272ه)، الذي نشر بعنوان"نقد النثر" ونسب خطأً إلى قدامة بن جعفر(ت 337ه).

- الصناعتين: لأبي هلال العسكري(ت395ه)

-مؤلفات أبو حيان التوحيدي(بعد 400 ه):كالمقابسات،الهوامل والشوامل،والإمتاع والمؤانسة، البصائر والذخائر .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير.- محل الدراسة- ،ومؤلفاته الأخرى

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور .

- الوشي المرقوم في حلّ المنظوم .

- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب.

ثانيا : الكتب المتعلقة بنقد النثر ،وهي :

- أدب الكاتب: لابن قتيبة الدِّنيوري (ت276ه).

- الرسالة العذراء : لابن المدبر (ت279ه).

- أدب الكتّاب: للصولي (ت335ه).

- النكت في إعجاز القرآن : للرماني (ت386هـ).

- بيان إعجاز القرآن: للخطابي (ت388هـ).

- إعجاز القرآن :للباقلاني(ت403هـ).

- إحكام صنعة الكلام: لابن عبد الغفور الكلاعي (ت543هـ).

- ولابن الأثير كتاب مختص بصناعة "الإنشاء" يسمى: المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء، وهو ما يسميه مُحققا الجامع الكبير: مصطفى جواد،وجميل سعيد، وكذلك أحمد بدوي بكتاب:"المفتاح المنشأ في صناعة الإنشا ".

وقد جاء بعد عصر ابن الأثير كتب مختصة أيضا في نقد النثر، بل بالتخصيص في صناعة الإنشاء أبرزها :

- البرد الموشي في صناعة الإنشا: للموصولي (ت700هـ)

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: للقلقشندي (ت821هـ)

وقد عمدنا الوقوف عند المؤلفات المختصة بنقد النثر فقط- ولو باختصار-مُعرضين عن المؤلفات الأخرى،وإنْ كانت مهمة للخطاب النثري، لكي لا ينصرف الدارس عن التركيز على الخطاب النثري، وإبراز مكانة هذه الثمرات و الكتب التعليمية .

2-1- أدب الكاتب لابن قتيبة الدِّينَوْري:

وهو حلقة من سلسلة الكتب التي ألفها العلماء لإعانة الكتاّب المحدَّثين على الكتابة ويتوجه فيه الكاتب الوجهة التعليمية، فيبدؤه بمقدمة يضمنّها نصائح للكُتّاب على طريقة بشر بن المعتمر، إلا أنه يخالفه في مذهبه الفكري- فهو من أهل السنة وليس معتزلي- داعيًا إلى عدم التعلّق بالمنطق، والفلسفة وغيرهما [50].يضم أربعة أقسام: كتاب المعرفة،كتاب تقويم اليد كتاب تقويم اللسان، كتاب الأبنيّة ،وهو يقول في مقدمة كتابه" أدب الكاتب" عن سبب تأليفه هذا الكتاب:" فلما رأيت أن هذا الشأن كل يوم إلى نقصانٍ ، وخشيت أن يذهب رسمهُ ويعفو أثرهُ، جعلت لهُ حظًا من عنايتي، وجزءًا من تأليفي، فعملت لمُغْفِل التأديب كتبا خِفافًا في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد ، ويشتمل كل كتابٍ منها على فنّ "[51] .

2-2- الرسالة العذراء لابن المدبر: (أبي إسحاق إبراهيم) .

إنها رسالة في مقاييس صناعة الكتابة، إلا أن كل تلك المقاييس لا تخرج عن فلك ما رسم الجاحظ في "البيان والتبيين"، ويرى حمادي صمود أن تعصّب صاحبها للقلم، والدفاع عن الكتابة والكُتّاب على حساب الشعر والشعراء، قلّص من أهمية الرسالة فهو يتحرك في موقف محادٍ للشعر ينُم عن ضِيق أفق في إدراك علاقة الشكل الأدبي بالبنية اللغوية ، فالشعر في رأيه "مواطن اضطرار" [52] .

وقد نشرت هذه الرسالة مع مقدمة بالفرنسية بتحقيق زكي مبارك سنة1931م، أما المتوفرة لدينا فهي ضمن: جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة: لأحمد زكي صفوت .

2-3- أدب الكتّاب للصولي: (أبي بكر محمد بن يحي بن عبد الله الصولي)

وهو أيضا كتاب تعليمي يقول في مقدمته: "هذا كتاب ألفناهُ فيما يحتاج إليه أعلى الكُتاب درجة،وأقلّهم فيه منزلة، وجعلته جامعًا لكل ما يحتاج الكاتب إليه حتى لا يعوّل في جميعه إلا عليه،وقد جزأته ثلاثة أجزاء ،في أول كل جزء منها ذكر ما فيه من الأبواب ليقرّب على طالبه ما يريد منه، وهذا الكتاب هو المستحق أن يسمى "أدب الكُتّاب"على الإيجاب لا على الاستعارة، وعلى التحصيل لا على التمثيل ."[53].

2-4- دراسات إعجاز القرآن (الباقلاني ، الرماني، الخطابي):

وتعتبر دراسات إعجاز القرآن قمّة الدراسات النقدية المتصلّة بالنثر، إذْ أن القرآن في صورته النثرية كان باعثًا لإعجازه البياني، والبحث عن أسرار هذا الإعجاز في بنائه الأسلوبي وبذلك "تحوّلت هذه المؤلفات في غالب الأحيان إلى كتب بلاغة لا يميّزها عنها إلا حضور البعد العقائدي منطلقًا وغايةً،وما اصطبغت به لهجتها من صبغة دفاعية واضحة ."[54]

ويعلل زكي مبارك وسم أكثر ما كُتب عن القرآن باسم الإعجاز، بأنه لم يكن عملاً فنيّا بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي، فالناقد لا يقف موقف الممتحن للمحاسن والعيوب أمام هذا الأثر الأدبي، بل هدفه إظهار ما خفي من أسرار هذا الكتاب المجيد، الذي يمثل المثل الأعلى للبلاغة والبيان"فإنّ كنا لا نستطيع أن نجزم بوجود نظرية للنثر في النقد العربي بنفس درجة الشعر عندهم فإنه يمكن أن نجزم بوجود نظرية للنثر القرآني."[55] فهذه المؤلفات النقدية الثلاثة-السابقة – التي تدرج أصحابها من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي من أهم كتب النقد في ذلك العصر، وقد حَوَت جملة من الآراء مثلت بمجملها موقف أهل المعتزلة في الإعجاز عند الرّماني في القرن الرابع الهجري، تمامًا كما مثلّ الخطابي رأي أهل الحديث وكما مثلّ الباقلاني رأي الأشعرية .

وقد طبع كتاب النكت في "إعجاز القرآن" للرماني،و"بيان إعجاز القرآن" للخطابي ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" إلى جانب"الرسالة الشافية" لعبد القاهر الجرجاني من تحقيق:خلف الله، وزغلول سلام.

2-5- إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي:

إذا وصلنا إلى القرن السادس الهجري سيبدو لنا أنّ إدراك الدارسين المحدثّين للغبن الذي لحق النثر العربي القديم وفنونه، ليس اكتشافا جديدًا خاصًا بهم،فقد أدرك النقاد القدامى المتأخرون هذا الغبن، الذي لحق بالنثر العربي على أيدي النقاد الذين سبقوهم ، وحاولوا استدراك ذلك بتخصيص مؤلفات مستقلة لدراسة النثر ونقده، والتنظير لهُ، ولعل أبرز هؤلاء النقاد هو: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي- من الأندلس- صاحب كتاب:"إحكام صنعة الكلام"؛والذي يعدّ فريدًا من نوعه في تاريخ نقدنا العربي القديم بشكل عام ، وفي نقد الخطاب النثري بشكل خاص، وقد أشار الكلاعي إلى أهم الأسباب التي يرى أنها كانت مسؤولة عن هذا الإهمال، والتي دعته إلى أن يخصص كتابه هذا لدراسة الخطاب النثري دون الشعري يقول:"وإنما خصَصْت المنثور لأنه الأصل الذي أمن العلماء - لامتزاجه بطبائعهم- ذهاب اسمه فأغفلوهُ، وضمن الفصحاء- لغلبته على أذهانهم- بقاء وُسْمهِ فأهملوهُ ، ولم يحكموا قوانينه، ولا حصروا أفانينهُ.....فلو نسأ الله في أجلهم إلى أن يسمعوا شاعر هذا الزمان: فما شيء- وقد بالغت فيه - بأحوج للبيان من البيان

لأجروا النثر مجراه، وحفظوا منه ما حفظناه ، ولكن أبى الله إلا أن يكون لكل زمانٍ رجال وفي كل أوانٍ للعقل مجال. " [56] وكأن الكلاعي يقدم سببين:أولهما:أن النقاد القدامى اعتبروا النثر وفنونه من مسلمات وبديهيات الثقافة الأدبية في ذلك العصر؛ أي أنه أوضح من أن يكتب حوله .

وثانيهما : أنه كان طبيعيا أن تتأخر الحركة التنظيرية للنثر إلى القرن الخامس الهجري وما بعده، لأنه ؛أي النثر المكتوب خاصة لم يزدهر إلا في مراحل متأخرة، وليس كالشعر الذي نضج واكتمل منذ العصر الجاهلي ،فليس من العدل في نظر الكلاعي، ولا من طبيعة التدرّج في الدراسات الأدبيّة والنقدية مطالبة القدامى بقول كل شيء ، وبنفس الدرجة التي دُرس بها الشعر.

ويتكون كتاب الإحكام من مقدمة وبابين ، أما المقدمة: فقد أشار فيها إلى السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب، وهو الردّ على التهم التي وجهها إليه شخص مجهول لم يسمه المؤلف، وقد تحدث فيها عن البيان مدلوله ومعناه، ورجّح بين المنظوم والمنثور.وجعل الباب الأول في الكتابة وآدابها، ويعتبر كتاب الصولي نموذجًا لهذا الفصل من الكتاب. [57] أما الباب الثاني الذي يشكل معظم هذا الكتاب، فقد خصّصُه الكلاعي في ضروب الكلام وهي: الترسيل، والتوقيع، والخطبة،والحكم، والأمثال، والمقامة، والحكاية، والتوثيق، والتأليف[58] أو يمكن القول أنه خصّصه لبحث الأجناس النثرية التي كتبت في الأدب العربي حتى عصره،ثم انصرف إلى الأسلوب نفسه ،فاختار السجع وقام بحصر أنواعه التي ارتآها، وربما اختاره هو دون غيره لسيطرة هذا الأسلوب على النثر العربي منذ القرن الرابع حتى عصر الكاتب.

فقد ابتكر ابن عبد الغفور الكلاعي منهجًا نقديًا يقوم أساسًا على دراسة النثر من خلال دراسة الأجناس أو الفنون النثرية التي كتبت في الأدب العربي، وهذا المنهج يدخل ضمن ما يسمى في عصرنا الحديث بالنقد الأجناسي generic criticism،ولو بمفهومه التصنيفي الضيق، فقد تمكن الكلاعي من خلال هذا المنهج حصر الأجناس النثرية- ضروب الكلام كما عبر عنها - تبعًا للوظيفة اللغوية في ثمانيّة أجناس رئيسية. وهو أشمل حصر يقدمهُ ناقد عربي على الإطلاق [59]، إذن فمنهج الكلاعي مكنّه من إضافة بُعد جديد في نقدنا العربي القديم عامة، وفي نقد الخطاب النثري خاصة. [60]

وأيضا **كتاب البرد الموشى في صناعة الإنشاء: للموصولي** (ت700هـ) ، وكتاب **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: للقلقشندي** (ت821هـ) .

خاتمة:

يمكننا الإقرار في ختام هذا البحث بأنّ وعي النقاد القدامى بالخطاب النثري يتجاوز مجرد الانتصار له والدفاع عنه إلى محاولة وضع نظرية للخطاب النثري على اعتباره كيانا مستقلا يستحق دراسة وعناية قد تربو عن العناية بالشعر، ولقد تطور مسار التنظير للخطاب النثري-كما رأينا- إلى أن استوى خلقا كامل الملامح بداية بجملة النصوص التي تبدي أن أصحابها التفتوا إلى ضرورة التنظير له ، والتي تعد بذور نقد الخطاب الشفهي وصولا إلى مرحلة النقد المكتوب.

الهوامش والإحالات:

[1] استعمال مصطلح " الخطاب "للمنتوج الشعري والنثري متداول في النقد العربي القديم ينظر مثلا :

- الجاحظ: البيان و التبيين ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،دار الجيل ، بيروت ، (د.ت) ،ص: 114/1 .

- أبي هلال العسكري :الصناعتين : تحقيق : مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط2، 1989 ، ص: 23-25-39-58

-ابن المعتز: كتاب البديع: شرحه وحققه : عرفان مطوجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط1 ، 2001 ، ص 48.

- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق : محمد أبو الفصل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، ط4 ، 1966 ، ص: 18-24-80-98-177 .

- الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ،مصر ،ط3 ، 1959 ص:46 .

(2)التوحيدي ومسكويه: الهوامل والشوامل ، تحقيق : أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، 1951 ، ص : 309.

(*) نقصد بالخطاب النثري : النثر الفني (الأدبي).

(3) ينظر مثلاً: البشير المجذوب: حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى: ، الدار العربية للكتاب، ليبيا ،1982 ص:9-10 .

- محمد اليعلاوي: أشتات في اللغة والأدب والنقد ، دار الغرب الإسلامي،ط1، 1992،ص:366.

- بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر،1981 ،ص:60.

- مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربي ، سلسلة عالم المعرفة، العدد218 ،1997،ص: 329.

(4) ينظر العسكري الصناعتين : ،ص:497-498-499، ويؤكد على ذلك من المحدثين : محمد زغلول سلام في تاريخ النقد الأدبي والبلاغة (حتى القرن الربع للهجري)،ص:85.

(5) للاطلاع على أسباب غبن النثر وقلة الاهتمام به ينظر: البشير المجذوب: حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، ص:12-15.

(6) عبد القادر هني: دراسات في النقد الأدبي عند العرب في الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي ،ص:12.

(7) طه حسين: البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، مقدمة لكتاب نقد النثر المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995،ص:04.

(8) ينظر: أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة(العصر الجاهلي والإسلامي) ، المكتبة العلمية، بيروت،ط1، (د،ت)، ج1ص:29.

(9) أبي هلال العسكري الصناعتين ،ص:499.

(10) أكد الفارابي هذه الفكرة في معظم مؤلفاته: ينظر الفارابي: رسالة في قوانين صناعة الشعر ، ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو طاليس ، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت(د.ت)،ص:151.

(11) ينظر ابن وهب البرهان : ،ص: 146-147.

(12) لجاحظ: البيان والتبيين ، 1/115-116،وأيضا العمدة: لابن رشيق:ص1/386، والصناعتين:للعسكري،ص23.

(13) ينظر: محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغة والأدبية عند الجاحظ(من خلال البيان والتبيين) ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1983،ص: 184.

(14) ينظر: أبو هلال العسكري: الصناعتين: ،ص:37.

(15) الصناعتين، ص:399 .

(16) ابن رشيق: العمدة : ،1/389 .يقارن بالأمالي: للقالي، دار الأفاق الجديدة، بيروت،1980، 2/277. [جَلَّى بالجيم بدل حَلَّى التي وردت في كتاب " العمدة"].

(17) طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع): ،دار الكتب العلمية بيروت ،(د.ت)،(د. ط)،ص :21.

(18) في هذا قضاء على أوهام من زعموا أن لا وجود لنقد النثر حتى القرن الرابع على لسان بديع الزمان في مقامته الجاحظية .ينظر: محمد اليعلاوي: أشتات في اللغة والأدب والنقد ،ص :366.

(*) ميثوهُ : ذلّلوهُ وأعدُّوه

(19) الجاحظ: البيان والتبيين : ،14/2.

(20) سورة هود، أية :1.

(21) ابن هشام: السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)،288/1.

(*) مغدق: كثير الماء.

(22) الزمخشري: الكشاف 158/4 نقلاً عن الفن ومذاهبه في النثر العربي: لشوقي ضيف،ص:44

(23) أدونيس: الثابت والمتحول ،ص:23، وينظر كذلك: حديث الشعر و النثر: طه حسين،ص:25.

(24) ينظر: ابن رشيق العمدة ، 396/1.

(*) الإنبعاق : التوسع والتكثّر فيه .

(25) ابن رشيق: العمدة ،ص:382/1.

(26) الجاحظ البيان والتبيين ، 261/1.

(27) طه حسين: البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر: ، مقدمة لكتاب نقد النثر المنسوب خطأً إلى قدامة بن جعفر،ص:4-5.

(28) الجاحظ: البيان والتبيين : ، 122/1.

(29) البيان والتبيين :ص:171/3.

(30) ينظر البيان والتبيين :81/1.

(31) البيان والتبيين:394/1.

(32) ينظر : ابن رشيق العمدة: ، 396-395/1 ، وكذلك البيان والتبيين،ص:113/1.

(33) العمدة: 385/1.

(34) للجاحظ: البيان والتبيين ،96/1.

(35) البيان والتبيين:118/1.

(36) البيان والتبيين : 06/3.

(37) البيان والتبيين:113/1.

(38) ينظر البيان والتبيين :163-162/1.

(39) البيان والتبيين :104/1.

(40) صحيفة "بشر بن المعتمر" احتفظ بها الجاحظ في البيان والتبيين:135/1.

(41) البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر: طه حسين،ص:06.

(42) ينظر: شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، مصر،ط6،1983 ،ص:21.

(43) محمد كرد علي: أمراء البيان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،ط1948،2 ،28/1 .

(44) عبد الواحد حسن الشيخ: صناعة الكتابة عند ضياء الدين بن الأثير: ،ص:42.

(45) للجاحظ: البيان والتبيين :115/1-116. ويقارن بالصناعتين للعسكري: ص:23، والعمدة لابن رشيق:385/1-386.

(46) البيان والتبيين:115/1.

(47) عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخارنجي، مصر،1980،ص:25-26.

(48) ينظر: إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي العرب(نقد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن هجري) : ، دار الشروق، عمان، ط1، 2006 ، ص:646.

(49) أبلاّغ محمد عبد الجليل: شعرية النص النثري: ص:26.

(50) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة(حتى أخر القرن الرابع): ،ص:400.

(51) ابن قتيبة: أدب الكاتب : ، تحقيق : علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1، 1988،ص: 14.

(52) ينظر: حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب (أسسه وتطوره إلى القرن السادس) ، منشورات الجامعة التونسية 1981 ،ص:316-317.

(53) الصولي أدب الكتاب ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994،ص:09.

(54) حمادي صمود التفكير: البلاغي عند العرب ،ص:39.

(55)رشيد يحياوي: شعرية النوع الأدبي (في قراءة النقد العربي القديم) ،أفريقيا الشرق ،ط1، 1994،ص:17.

(56) ابن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام ، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ،1966،ص:39-40.

(57) ينظر: محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، دار الأنوار ، بيروت،ط1 ،1968 ،ص:404.

(58) ينظر:الكلاعي إحكام صنعة الكلام : ،ص:103.

(59) صالح بن مغيض الغامدي: منحى الكلاعي في نقد النثر ،مجلة جامعة الملك سعود، السعودية،المجلد1995،7،ص:379.

(60) تجدر الإشارة إلى مؤلفين في النقد الموجه للخطابين النثري و الشعري: -كتاب صناعة الكلام للجاحظ ،نُشر على هامش كتاب" الكامل" للمبرد ، بالقاهرة،سنة 1323هـ ينظر: محمد زغلول: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة سلام،ص:411.

- كتاب: الحُكم بين النظم والنثر لابن سنان الخفاجي، ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب: إحسان عباس ،ص:398.

قائمة المراجع:

- الجاحظ(د.ت): البيان و التبيين ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،دار الجيل ، بيروت .
- أبي هلال العسكري (1989):الصناعتين : تحقيق : مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط2.
-ابن المعتز(2001): كتاب البديع: شرحه وحققه : عرفان مطوجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط1 .
- القاضي الجرجاني(1966): الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق : محمد أبو الفصل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، ط4 .
- الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري(1959) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ،مصر،ط3 .
- التوحيدي ومسكويه(1951): الهوامل والشوامل ، تحقيق : أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة .
- البشير المجذوب(1982): حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامي: ، الدار العربية للكتاب، ليبيا .
- محمد اليعلاوي(1992): أشتات في اللغة والأدب والنقد ، دار الغرب الإسلامي،ط1.
- بشير خلدون(1981): الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر،1981 .

- مصطفى ناصف(1997): محاورات مع النثر العربي ، سلسلة عالم المعرفة، العدد218.
- طه حسين(1995): البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، مقدمة لكتاب نقد النثر المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أحمد زكي صفوت(د.ت): جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة(العصر الجاهلي والإسلامي) ، المكتبة العلمية، بيروت،ط1، ج1.
-الفارابي(د.ت): رسالة في قوانين صناعة الشعر ، ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة،بيروت.
-محمد الصغير بناني(1983): النظريات اللسانية والبلاغة والأدبية عند الجاحظ(من خلال البيان والتبيين): ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر.
-القالي(1980)، الأمالي في لغة العرب ،دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- طه أحمد إبراهيم(د.ت): تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع): ،دار الكتب العلمية بيروت.
- ابن هشام(د.ت): السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- شوقي ضيف(1983) : البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، مصر،ط6.
- محمد كرد علي(1948): أمراء البيان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،ط2.
- عبد الحكيم راضي(1988): نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي، مصر.
إحسان عباس(2006): تاريخ النقد الأدبي العرب(نقد الشعر من القرن الثاني إلى القرن الثامن هجري) : ، دار الشروق،عمان، ط1.
- ابن قتيبة(1988): أدب الكاتب : ، تحقيق : علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1.
-حمادي صمود(1981): التفكير البلاغي عند العرب (أسسه وتطوره إلى القرن السادس) ، منشورات الجامعة التونسية.
- الصولي(1994): أدب الكتاب ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.
- رشيد يحياوي(1994): شعرية النوع الأدبي (في قراءة النقد العربي القديم) ،أفريقيا الشرق ،ط1.
- ابن عبد الغفور الكلاعي(1966): إحكام صنعة الكلام ، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت.
- محمد رضوان الداية(1968): تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، دار الأنوار ، بيروت،ط1 .
- صالح بن مغيض الغامدي(1995): منحى الكلاعي في نقد النثر ،مجلة جامعة الملك سعود، السعودية،المجلد7.